جامعة السلطان قابوس
مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية

Sultan Qaboos University
Journal of Arts & Social Sciences

فن المديح النبوي في ديوان صفي الدين الحلِّي (٧٥٠هـ) دراسة تحليلية

إيمان عواد الرجب

محاضر
رئيس قسم اللغة العربية
مؤسسة السلام التعليمية - دبي
الإمارات العربية المتحدة
imanalrajab@yahoo.com

تاريخ الاستلام: ٢٠٢٣/٠٨/٠٢
تاريخ القبول للنشر: ٢٠٢٤/٠١/٠٧

فن المديح النبوي في ديوان صفي الدين الحلِّي (٧٥٠هـ) دراسة تحليلية

إيمان عواد الرجب

الملخص

تناول البحث الحديث عن نشأة فن المديح النبوي منذ بداياته الأولى في عصر الرسول ﷺ وصولًا إلى العصر المملوكي، مرورًا بمراحل تطوره والعوامل والأسباب التي ساعدت على ازدهاره مما جعله فنًا قائمًا بذاته، ومدى تعلق شعراء العصر المملوكي بهذا الفن، وتأثرهم بلامية زهير وبردة البوصيري، وعلى رأسهم شاعرنا صفي الدين الحلِّي. وتطرق البحث لذكر نبذة تعريفية موجزة عن حياة الشاعر – صفي الدين الحلِّي– وخصائص مدائحه للرسول ﷺ وأسلوبه في نظم قصائده ونهجه من حيث الشكل والمضمون، موضحًا أن الشاعر وافق شعراء عصره أحيانًا وخالفهم أحيانًا أخرى، معبرًا عن ثقافته الواسعة ومهاراته الشعرية في تطويع الألفاظ الصعبة، واستخدام المصطلحات القديمة دون الاخلال بمعناها، وتلوين قصائده بألوان البديع التي طالما برع فيها، تاركًا خلفه قصائد تسرد لنا الأحداث التاريخية، وتنبض بصدق العاطفة، وتعبر عن حال شاعرها وثقافته ومدى صدق عاطفته وشوقه للرسول ﷺ وآله وصحبه، معلنًا عن أسباب نظمه لمدائحه طمعًا ورغبة بشفاعة خير الورى،وتهدف هذه الدراسة إلى التعرف على خصائص شعر الحلِّي في مدائحه النبوية سواء من ناحية الشكل أو المضمون، وتوضح معالم مدائحه وما تميزت به عما سواها ومراحل تطور مدائحه وأساليبه وغايته في نظمها.

الكلمات المفتاحية: المديح النبوي؛ صفي الدين الحلِّي؛ العصر المملوكي؛ المقدمة الطللية؛ الأساليب الشعرية.

The Art of Praising the Prophet Analytical study Diwan Safi al-Din al-Hali

Eman Awad Alrajab

Abstract

This research discusses the art of praising the Prophet Muhammad from its early beginnings during the era of the Messenger (peace be upon him) to the Mamluk era. It explores the stages of development, as well as the factors and reasons that contributed to its evolution, establishing it as a distinct art form. The poets of the Mamluk era were particularly influenced by the works of the poets Zuhair and al-Busiry (Burdah), with Safi al-Din al-Hilli being a prominent figure among them.The study provides a summarized introductory overview of al-Hilli's life and highlights the characteristics of his praises for the Messenger. It examines his poetic methodology, including his approach to form and content, his extensive cultural knowledge, and his poetic skills in adapting difficult vocabulary while preserving its original meaning. The aim of this study is to identify the unique features of al-Hilli's poetry in his prophetic praises, distinguishing them from others, and to outline the stages of development in his poetry.

Keywords: praise of the Prophet; The Mamluk area; Safi al-Din al- Hilli; Introductory; poetry.

مقدمة

اشتهر العصر المملوكي بتنوع الأغراض الشعرية فمعظم الشعراء ساروا على نهج من سبقهم حيث نظموا قصائدهم على البحور الشعرية التقليدية وخاضوا في غمار الأغراض الشعرية السائدة إلا أن هذا الأمر لم يمنعهم من التجديد والابتكار ولم يقف حائلا أمام كل شاعر ليتخذ له نهجا وأسلوبا خاصين به في أغراضه الشعرية، وكان للمديح النبوي الصدارة عمن سواه فأبدع شعراء هذا العصر في نظم القصائد الطوال كالبوصيري الذي سار على نهج بردة كعب بن زهير بن أبي سلمى كما نظم أهل البديع مدائحهم بما يعرف بالبديعيات وما إلى ذلك من الإبداع والابتكار والتجديد في غرض المديح النبوي

وتهدف هذه الدراسة إلى دراسة خصائص شعر الحلِّي في مدائحه النبوية، وأثر شعراء عصره على مدائحه وعلى رأسهم البوصيري الذي احتذى حذوه في نظم بديعيته، والتعرف على مميزات وخصائص مدائحه النبوية، وكيف تمكن من أن يمزج بين النزعة التقليدية والأساليب الحديثة؟

وتكمن أهمية هذه الدراسة في تسليط الضوء على المدائح النبوية في العصر المملوكي بوجه عام وفي ديوان صفي الدين الحلِّي بوجه خاص، ودراسة جوانب التجديد والإبداع فيها.

أما إشكالة الدراسة فتكمن في معرفة الدوافع التي دفعت صفي الدين الحلِّي لنظم قصائده في فن المديح النبوي، وغايته من اتباع نهج البوصيري في نظمها.

وتجيب هذه الدراسة عن عدة تساؤلات، منها: ما عوامل نشأة وتطور فن المديح النبوي في العصر المملوكي وفي شعر صفي الدين الحلِّي؟ وكيف تأثر صفي الدين الحلِّي بشعراء عصره في نظمه للنبويات؟ وبماذا تميز عنهم؟ وهل أثرت ثقافته على مدائحه ؟ ولماذا اهتم بنظم المدائح النبوية؟ وهل اهتمامه بعلم البديع أثر على مديحه النبوي؟ وماهي الأسباب التي دفعته لنظمه؟

الدراسات السابقة

أشارت دراسة فريح (١٩٩٣) إلى فن المديح النبوي الذي راج بالعصر المملوكي وتناولت الحديث عنه بشكل عام وضمنت بعض النماذج الشعرية للشاعر صفي الدين الحلِّي

كما تحدثت دراسة حويزري (٢٠١٨) عن جمال الصورة الشعرية في مقدمة قصائد المديح النبوي وأن الشاعر صفي الدين الحلِّي استخدم أساليب الكناية والتشبه والمجاز معبرًا عن وجدانه وجوانبه النفسية.

- بينما تطرقت دراسة الرجب (٢٠٢٠) للحديث عن المدائح النبوية وأثر البديع الذي راج خلال العصر المملوكي مع شرح تفصيلي لنشأته وعوامل ازدهاره، وتناولت الحديث عن بديعية صفي الدين الحلِّي التي بدورها كانت من ضمن أشهر البديعيات التر راجت حينها.

أما المنهج المختار في الدراسة فهو المنهج التحليلي، وذلك من خلال الاطلاع على قصائد المديح النبوي التي ورد ذكرها في ديوان صفي الدين الحلِّي، وفهم محتواها وتحليليها تحليلًا أدبيا يتناسب مع موضوع الدراسة.

خطة البحث وهيكله: تم تقسيم الدراسة لمقدمة تناولت الحديث عن المديح النبوي، بالإضافة إلى هدف وأهمية الدراسية وذكر الإشكالية والدراسات السابقة والمصادر التي اعتمدت عليها الدراسة، بينما التوطئة تحدثت عن حياة الشاعر، ونشأة المديح النبوي في العصر المملوكي، تناول المبحث الأول دراسة وحدة القصيدة في المديح النبوي لدى صفي الدين الحلِّي أما المبحث الثاني فخصصته لدراسة معاني المديح لديه، وجعلت المبحث الثالث لدراسة الألفاظ الشعرية.

مصادر الدراسة: يُعد ديوان صفي الدين الحلِّي المصدر الأول الذي ارتكزت عليه الدراسة كما أن كتاب آفاق الشعر العربي للدكتور ياسين الأيوبي يعد مرجعًا مهما للدراسة، حيث تناول الحديث عن كل جوانب الشعر المملوكي، وأولى شُعرائها اهتمامًا منقطع النظير؛ فتناول الحديث عن الظروف العامة وأحوال العصر، كما صنف موضوعات الشعر في تلك الحقبة ومن أهم هذه الموضوعات شعر المديح النبوي ، حيث تطرق لنشأته وعوامل انتشاره مع بعضٍ من شواهده الشعرية، كما اعتمدت الدراسة على كتاب " الأدب في بلاد الشام الزنكيين والأيوبين والمماليك للدكتور بكري شيخ أمين كونه تطرق لأغراض الشعر في العصر المملوكي ومن ضمنها فن المديح النبوي، تحدث فيه عن أثر علم البديع في شيوع هذا الغرض الشعري، هذا بالإضافة للمصادر المهمة التي تعد مرجعًا للمديح النبوي، ومن أهمها كتاب الدكتور غازي شبيب " فن المديح النبوي في العصر المملوكي" وكتاب الدكتور علي محمد مكي " المدائح النبوية"

توطئة

أولًا: صفي الدين الحلِّي نشأته ومكانته العلمية

يعد صفي الدين الحلِّي من أشهر شعراء العصر المملوكي (بَرِدِي، ١٩٦٣: ج ١٠، ٢٣٨). ويصفه ابن شاكر بقوله: "هو العالم العلامة، البليغ المفوه، الناظم الناثر، شاعر عصرنا على الإطلاق "صفي الدين الحلِّي "أجاد القصائد المطولة والمقاطيع، وأتى بما أخجل زهر النجوم في السماء... تُطربك ألفاظه المصقولة، ومعانيه المعسولة، ومقاصده التي كأنها سهام راشقة وسيوف مسلولة ") الكتبي، ١٩٧٤: ج٢، ٣٣٥). ووصف شعره الصفدي بقوله: "أما الشعر فجرّد فُنونه، وصار من بَرِّه ضَبَّهُ، ومن بَحرهِ نُونَه، لأنه أبدع في مديحه وهجوه، ورثائه وغزله، ونسيبه وتشبيباته، وطرديات وحكمه وأمثاله، ولم ينحَطَ في شيء عن الذِّروةِ، ولم يخرج في مشاعرها عن الصفَّا والمروة" (الصفدي، ١٩٩٥: ٤٤-٤٥).

أشار صفي الدين الحلِّي في مقدمه ديوانه بأنه لن يتطرق للمدح في شعره سوى لرسول الله ﷺ وقد صرح قائلًا: "وكنت عاهدت نفسي أن لا أمدح كريما وإن جلَّ" كما قال أيضًا: " ولا أتصدى من المدائح إلا لما أعدّه زادًا للمال في مديح النبي -صلى الله عليه وسلم-

والآل "وبالرغم من أن صفي الدين الحلِّي لم يلتزم فيما قاله فيما بعد وضم ديوانه عده قصائد في المدح إلا أننا نود أن نشير إلى غايته من مدائحه لخير خلق الله؛ أنه نظمها لتكون له زادًا في الآخرة ().

ثانيًا: نشأة وتطور المديح النبوي في العصر المملوكي

عندما بدأ الرسول ﷺ بدعوته انقسم الناس بين مؤيد ومعارض، أتباعٌ وخصوم، لكل منهم جماعة من الشعراء تدافع بلسانها وشعرها عن وجهة نظرها، وهبَّ شعراء المسلمين بتشجيع من رسولنا الكريم ﷺ يدافعون عن الدين والعقيدة، وعن رسولهم الكريم ﷺ، مقارنين بين حياتهم قبل الإسلام وبعده وكيف ألف الإسلام بين قلوبهم فأصبحوا إخوانًا تحت قيادة رسولهم، فكان لابد لهم أن يمدحوا ويصفوا حامل لواء الدعوة الإسلامية (شبيب، ١٩٩٨: ٣٨).

فظهر فن المديح النبوي فرعًا يانعًا من فروع دوحة المديح، يعود في نشأته إلى شاعر الرسول ﷺ كعب بن زهير (ت سنة ٢٦هـ/ ٦٤٥م) في لاميته الشهيرة (بانت سعاد) والتي مطلعها:

مُتَيَّمٌ إثْرَها لَـمْ يُفْـدَ مَكْبُولُ بانَتْ سُعادُ فَقَلبِي اليومَ مَتْبُولُ

ومن هذا الباب أصبحت لاميته فتحًا شعريًا اتخذها الشعراء من بعده منهجًا وسبيلًا، وبغض النظر عما قيل بأن الأعشى مدح رسولنا الكريم – عليه أفضل الصلاة والسلام- بقصيدة دالية، جاء في مطلعها: (ألم تغتمض عيناك...) مكونة من أربعة وعشرين بيتًا نصفهم مقدمة غزلية والباقي في المديح النبوي (الأيوبي، ١٩٩٥: ١١٦)، كما أن شاعر الرسول ﷺ حسان بن ثابت كان أول من حمل راية هذا الفن في عصر الرسول ﷺ ، حيث مدحه كقائد عظيم انضم إلى جانبه؛ لإعلاء كلمة الحق وكي يكون جنديًا مخلصًا له، ذاكرً مناقبه وغزواته ﷺ.

و ذكر الشعراء الرسول ﷺ في قصائد الفخر في العصر العباسي الأول ، وزاد هذا التوجه لحرص الخلفاء على ذلك، لما يضفي عليهم الصيغة الدينية ، ومدى ارتباط نسبهم بنسب الرسول ﷺ ، ليتطور فن المديح النبوي ويبدأ الشعراء بنظمه على هيئة مقطوعات تبعتها قصائد كاملة ، وعندما نصل للعصر الفاطمي والأيوبي نجد أن هذه المقطوعات اكتملت قصائدَ في المديح النبوي ، واستقرت. (محمود، ١٩٩٦: ١٢٣- ١٢٤). وليصبح أحد الأغراض الشعرية المشهورة في أواخر العصر الأيوبي وصولًا للعصر المملوكي الذي ظهرت فيه النزعة الدينية وبدأ الشعراء بنظم قصائدهم الدينية (سليم، ١٩٦٢: ج ٨، ٢٨٢)

نُظمت المدائح النبوية بعد وفاة الرسول ﷺ وعلى الرغم من أن الشعر الذي يقال في الميت يطلق عليه فن الرثاء؛ لكن لأنه قيل في خير البشر نبينا الكريم، التي لاتزال شريعته حية فينا، ممتدة على امتداد الزمان والمكان، فهو موصول بالحياة، كما أن الرثاء يقال بعد الوفاة مباشرة وليس بعد مضي فترة زمنية طويلة، فإن قيل بعد ذلك أصبح مديحًا لا رثاءً، وبذلك قد يجوز لنا القول بأن حسان بن ثابت – رضي الله عنه-رثى الرسول ﷺ بينما البوصيري قد مدحه. (بكري، ١٩٧٢: ٢٦٥)

يصف الدكتور ياسين الأيوبي المديح النبوي قائلًا: "هذا المدح لم يخلُ منه عصرٌ ولا بيئة، وكلما تقدمت بنا الأعوام والأجيال والعصور تعمقت جذوره وامتدت ظلاله وأمسى من اللوازم والثوابت.. حتى وصلنا إلى مرحلة أصبح فيها المدح النبوي فنًا قائمًا بذاته أعطاه الشعراء كل عنايتهم وقريحتهم وثقافتهم، فكان لنا البديعيات () التي عُرفت بصورة مكتملة في العصر المملوكي" (الأيوبي ، ١٩٩٥: ١١٧).

حظي المديح النبوي بالنصيب الأعلى والأوفر في شعر المدح في العصر المملوكي، ولدى شعراء العصر، فكان له رواده ممن أبدعوا في نظم قصائده، أمثال: البوصيري(٦٩٤ هـ)، والشاب الظريف (٨١٥ هـ)، وابن نباتة المصري (٧٦٨ هـ)، وابن حجر العسقلاني(٨٥٢ هـ)، ابن الوردي (٧٤٩ هـ)، وشمس الدين الباعوني(٨١٨ هـ)، والقيراطي(١٠٥٠ هـ)، وصفي الدين الحلِّي(٧٥٠ هـ)، فلم يبق شاعرٌ في هذا العصر لم ينظم في المديح النبوي، ولعل الأمر يعود إلى البواعث والدواعي التي ألحت على شعراء العصر فخاضوا غماره وفازوا بالقدح المعلى به، ومن ذلك ما عايشه شعراء هذا العصر من عوامل بيئية نتيجة الحروب الصليبية، ولا نغفل عن أن اليهود بذلوا جهودهم في اشعال نار الفتنة بين المسلمين من خلال استغلال ضعف مركزهم واضمحلال قوتهم، ولعل أبرز الأسباب هو انتشار حركة التصوف في مصر، مما أدى إلى أن يتمسك الشعراء بتمجيد الرسول ﷺ ()

تعد المدائح النبوية فنًا شعريًا يندرج تحت فنون التصوف (بكري، ١٩٧٢: ٢٦٥)، ومما أعان على ذلك في القرن السابع الهجري ازدهار الفكر الصوفي، والقبول والترحيب اللذان حظيت بهما الطرق الصوفية، ويعد عمر بن الفارض من أشهر الصوفية حينذاك ممن تغنوا بالحب الإلهي، وكانت أشعاره لا تخلو من الإشارات الرمزية للرسول ﷺ (مكي، ١٩٩١: ١٠٦- ١٠٧)، وينضم لجانب الأشعار الدينية، التي تسمو فيها الروح وترتقي، وتنبع من صميم القلب العاشق، وذلك لأنها تُعدُ لونًا من ألوان التعبير عن العاطفة الدينية، وتُعدُ من أصناف الأدب الرفيع؛ لأنها تنبع من قلوب مليئة بمشاعر الحب والشوق والاخلاص لخير الورى سيدنا محمد ﷺ فجادت قرائحهم بأشعار تعجُ بالعاطفة الصادقة وتستصرخ من شدة الحنين والشوق للقيا الرسول ﷺ ولطلب شفاعته، ولزيارة الأماكن المقدسة التي تفوح منها رائحة الذكرى النبوية متعلقين بأمل شفاعته يوم الدين ليكون لهم شفيعا ونجاة من الهلاك.

ومما يؤكد أثر البيئة والحياة الاجتماعية والسياسية على شعراء العصر المملوكي وعلى فن المديح النبوي الذي حظي بالحظ الأوفر وراج رواجًا منقطع النظير، هو وفرة المؤلفات التي تضمنت الموضوعات الدينية في تلك الحِقبة، حيث أننا نلاحظ أن معظمها اتخذ طابعًا دينًا ، كما يؤكد ذلك الدكتور بكري شيخ أمين منوهًا إلى أن السبب في ذلك يعود إلى طبيعة هذه المؤلفات، هذا فضلا عن العوامل الخارجية الأخرى، ويقول في ذلك: "فالعلوم التي جدت ونشأت بعد انبلاج فجر الإسلام كانت في أصلها تهدف إلى خدمة القرآن والشريعة الإسلامية كالنحو، والصرف وما إلى ذلك، كذلك

فإن كثيرًا من التراث العلمي والفكري والفني قد مروا على أيدي التتار وهجمتهم الرهيبة على بلاد الحضارة والمدنية والثقافة فلا غرابة أن يكون النتاج التأليفي بعد الكارثة مصبوغًا بصبغة دينية وأدبية بغية تحصين الشريعة من جهة، ولأن الكتابة في هذا المجال قد لا تحتاج لأصول ومراجع في بعض الأحيان. وقد يكون تعليل الظاهرة عائدًا إلى صبغة البنية العامة التي كانت عليه آنذاك. فلقد قضى أبناء هذه البلاد على جحافل الفرنجة باسم الدين، ووقفوا أمام التتار باسم الدين، وحكم المماليك والعثمانيين باسم الدين. وقد يكون السبب كثرة المصائب الطبيعية والسياسية والاقتصادية كالحروب المتوالية، ونضوب الأنهار، وشح الأمطار، واجتياح الأوبئة والطواعين، وتدني المستوى الاقتصادي ودخل الأفراد، والمجاعات لشدة الغلاء والاحتكار والظلم، وفقدان الأمن الداخلي والخارجي... واضطراب القيم المُثلى، وانتشار الفوضى والشذوذ، وألوان المُجون، وتفسخ المجتمع... كل ذلك دعا إلى العكوف على التأليف الديني، والإغراق في هذا السبيل. وقد يكون السبب انقسام المجتمع إلى فريقين: فريق غرق في الملذات وعكف على ألوان المعاصي، فاستتبع أن يقف في وجهه فريق آخر فريق يقف في الطرف المعاكس، يدعو إلى الدين، والخلق... وليس أمام الفريق الثاني من سلاح إلا الدعوة باللسان والخط بالقلم" (بكري، ١٩٧٢: ٢٣٤- ٢٣٥).

ويؤكد الدكتور غازي شبيب أسباب اهتمام شعراء العصر المملوكي بالمديح النبوي، حيث أنه يرى أن العصر المملوكي شهد ولادة فن شعري جديد ألا وهو المديح النبوي، وكان لوجوده وولادته وانتشاره عدة أسباب صنفها من وجهة نظره إلى:

أولًا: أسباب ذات طابع ديني: التي جاءت نتيجة الصدام المستمر بين المسيحية والإسلام.

ثانيًا: غموض فكرة الوطنية: وذلك باعتبار الصراع القائم في تلك الحِقبة الزمنية عبارة عن صراع ينبع من العقيدة والدين لا من الانتماء إلى الوطن ومن هذا المنطلق نهج الشعراء سبيل المديح النبوي باعتباره خير حافظ للسيرة النبوية، وخادم للأمة الإسلامية ونهضتها، ونهضة اللغة العربية، فكان الوطن حينذاك عبارة عن مكان آمن يعيش فيه الإنسان حياة كريمة، وبذلك تكون كل الأرض له وطن، وكل العالمين أقارب.

ثالثًا: أسباب ذات طابع اجتماعي: حيث اشتهر العصر المملوكي بحركة العلم والمعرفة والتأليف في جميع المجالات، إلا أن دراسة الحديث النبوي، وتفسير القرآن الكريم نالتا الجانب الأوفر من الاهتمام والعناية، مما ساهم في نشوء التيار الديني.

كما أن ما كان يعانيه الشعب في الحياة الاجتماعية من إهمال وتحقير، وانتشار للأمراض والأوبئة، إلى جانب فيضانات النيل أحيانًا وشحه أحيانًا أخرى، كل هذه الأمور ولدت يقظة فكرية ألهمت الشعراء للعودة لله وللجوء والتمسك بشفاعة رسوله الكريم، وهذا ما يؤكد أن التصوف كان له عاملٌ كبير في اهتمام الشعراء بالمديح النبوي، فهم أول من بادروا وخطوا في هذا السبيل.

رابعًا: أسباب خاصة: ومنها شعور المسلمين أنهم غرباء، خائفون من الغد، مسلوبو الإرادة، لا يمتلكون سلطة لتحديد مصيرهم؛ مما ولد عندهم شعورًا بالبعد المكاني والزماني، حيث إنهم فضلوا العودة لتاريخهم المجيد، عندما كانوا ينتمون لدولة مترامية الأطراف، تحلى أهلها بحياة كريمة، فكان ماضيًا مجيدًا مليئًا بالعزة والفخر والنصر، هذا إلى جانب حبهم للرسول ﷺ الذي ملك قلوبهم وسيطر على مشاعرهم فجادت قرائحهم بمديحه، ولا نغفل عن أن الشعراء سلكوا طريق هذا الفن سعيًا منهم لصعود سلم الشهرة والمجد، وامتلاك قلوب الناس ؛ بعدما شاهدوا أثر لامية زهير، وبُردة () البوصيري. (شبيب، ١٩٩٨: ٣٨). الذي يُعد أول من سلك نهج المدائح النبوية في العصر المملوكي بقصيدته المشهورة بالبُرْدة، ولعل سبب شهرتها أنه أحاط نفسه بتلك القصيدة بالتعظيم والتقديس. (بكري، ١٩٧٢: ٢٦٥).

قدم الشعراء في العصر المملوكي فن المديح بما يتناسب مع طبيعة نفوسهم وواقعهم، وبذلك قد أدوا الوظيفة الشعرية من الناحية الدينية والاجتماعية والقومية كما ينبغي، وبذلك أصبح شعرهم حيًا ومديحهم للنبي صادقًا تعج به عواطف الشوق لشخصه الكريم، وللحياة الكريمة بعصره، والتعلق بأمل شفاعته ليزول عنهم كل هم ومرض وكرب، ويكون حصنهم الحصين على أمل إن ينعموا بحياة هانئة في دار الحق جراء ما كابدوه في الحياة الدنيا.

أولى شعراء العصر المملوكي فن المديح النبوي اهتمامًا كبيرًا سواء في الشعر أو النظم، فتحدثوا عن صفاته، ومناقبه، ومعجزاته، وسيرته النبوية، وأشادوا بفتوحاته، بغزواته ومواقفه، وبصحابته – رضي الله عنهم- ليصل بعضهم بقصائدهم بقصائده إلى دُرىً ملحمية. (الأيوبي، ١٩٩٥: ١١٨).

المبحث الأول

وحدة قصيدة المديح عند صفي الدين الحلِّي

اعتمد شعراء العصر المملوكي في مدائحهم على من سبقهم من الشعراء، لكن عندما يتعلق الأمر بالمدائح النبوية نجد أنهم جعلوا منه شعرًا حيًا؛ فقد جوّد فيه معظم شعراء العصر، حيث بلغوا به مبلغًا عظيمًا؛ لأنه صدر عن عاطفة دينية صادقة، فأثرت بهم، فأبدعوا في مدائحه النبوية، فأثروا فيمن أتى من بعدهم من الشعراء. (حسن، ٢٠٠٥: ٢٦٣). فأكثر ما يسترعي الانتباه هو صدق الشعراء وإخلاصهم في مدح المصطفى ﷺ لما تفرد به من خصال وصفات ميزته عن باقي البشر، ومن هذا المنطلق قدموا لنا خلاصة عبقريتهم الشعرية وبذلك تميزت المدائح النبوية في العصر المملوكي بالقوة والجزالة وحرارة العاطفة وجودة السبك و الأداء مقارنة بالفنون الشعرية الأخرى (بكري، ١٩٧٢: ٢٧٣). فالشاعر أمام النبي ﷺ لا يطلب وظيفة ولا جائزة ولا جاهًا ولا عطفًا أو محاباة مما عرفه ديوان المدح العربي، بل ينشد راحة الضمير ورضى الله ورسوله وأهل بيته لينعم بسعادة الدين والدنيا ويتم أركان كتابته ونظمه

وكان لصفي الدين الحلِّي نصيبٌ من المدائح النبوية حيث ضم شعره خمس قصائد، يقول عنها الدكتور ياسين الأيوبي: " وينحصر مدح الحلِّي النبوي في خمس قصائد معتدلة الطول باستثناء الرائية الأولى التي بلغت تسعين بيتًا وسادسة طويلة هي بديعيته المسماة: " الكافية البديعية في المدائح النبوية" وتبلغ مائة وخمسة وأربعين بيتًا؛ حملت هموم صاحبها وأشواقه وحبه الكبير للنبي وآله وصحابته، فضلًا عن المسير الطويل الذي كابده في سبيل الوصول إلى الديار الإسلامية المقدسة " (الأيوبي، ١٩٩٥: ١٢٨)، بينما يرى الدكتور محمد إبراهيم الحور أن شعره اشتمل على ست قصائد يمدح فيها الرسول ﷺ وسبع مقطوعات شعرية، يُضيف إليها قصيدته الكافية البديعية؛ التي جمع فيها بين البديع وفن المديح النبوي، كما أنه يرى أن الشاعر أظهر في هذه براعة فائقة في المديح، وصدقًا في التعبير، وعلمًا ومعرفةً بسيرته ﷺ، كما أنه يجد أن نَفَس الشاعر طال في ثلاث قصائد بلغت إحداها تسعين بيتًا، والثانية ثمانيةٌ وخمسين بيتًا، والثالثة خمسين بيتًا، ومما أعانه على ذلك اتباعه لأسلوب السرد التاريخي من خلال سرد صفات الرسول ﷺ ومناقبه وسيرته العطرة. (الحور، ١٩٩٠: ٨٨-٨٩)، ومن هذا المنطلق لن نتطرق في هذه الدراسة لجميع قصائده ومقطوعاته في المديح النبوي؛ بل سنكتفي بالثلاث قصائد التي ضمها ديوانه في المديح النبوي، والتي أشار إليها الدكتور محمد الحور. كما تم الاستشهاد ببعض البيات الشعرية من القصائد الآنف ذكرها بما يتناسب مع متطلبت البحث وموضوعاته دون الإخلال بالمعنى العام.

ومن خلال الاطلاع على قصائده في المديح النبوي نرى أنها امتازت بعدة مميزات ولعل أبرزها أنها مديح نابع عن شعور صادق بالحب، ذات أسلوب سلس ومتناغم يبتعد فيها عن التكلف كل البعد، مليئة بمشاعر الحبُ والإكبار والتعظيم للرسول ﷺ ورغبته الملحة في اللجوء إلى كنفه ونيل شفاعته، مستغفرًا عما بدر منه من هفوات، لعله يجد بمديحه سبيل النجاة (الأيوبي: ١٩٩٥: ١٢٨)، ومن ذلك قوله في قصيدته أيا صادق الوعد (الحلي: ٢٠٠٠"١/ ١٤٤ – ١٤٥) -عدد أبياتها تسعون بيتًا [البحر الطويل]

يُوازِي الجِبَالَ الرَّاسِيَاتَ صَغِيرُها إليكَ، رَسُولَ اللهِ أشكو جَرَائِمًا
لَدُكَّتْ، وَنَادى بالثُّبورِ- (): ثَبِيرُهَا كَبائِرُ لَوْ تُبْلَى الجِبَالُ بِحَمْلِهَا

وفي قصيدته أخذ الإله لك العهود والتي قالها في مدح رسول الله ﷺ يوم مولده ذاكرًا بعض مناقبه – (الحلي، ٢٠٠٠: ١/ ١٥١) عدد أبياتها ٥٧ بيتًا- يقول (): [البحر الكامل]

نِعَمِ الجِسَامِ، وَمَنْ لَهُ الإحْسَانُ يَا خَاتِمَ الرُّسلِ الكِرامِ وَفَاتِحِ الـ
طَبْعٌ عَليهِ رُكِّبَ الإنْسَانُ أشْكُو إليكَ ذُنُوبَ نَفْسٍ هَفْوُهَا
إنَّ العَبِيدَ يَشِيْنُها العِصْيَانُ فَاشْفَعْ لِعَبْدٍ شَانَهُ عِصْيَانُهُ؛
نُصِبَ الصِرَاطُ، وَعُلِّقَ المِيْزَانُ فَلَكَ الشَّفَاعَةُ في مُحِبِيكُمْ، إذا
فِي أَنْ يَكُونَ جَزَاءَهُ الغُفْرَانُ فَلَقَدْ تَعَرَّضَ للإجَازَةِ طَامِعًا

نجد أنه يشكو من ذنوبه وهفواته؛ متعذرا بأنها من طباع البشر، ومعتذرًا عنها، وطالبًا الشفاعة في محبته للرسول الكريم، لعله يشفع له ويجزيه عن قصيدته هذه يوم القيامة عندما يُنصب الصراط ويُعلق الميزان.

إن قصائد المديح النبوي اتخذت لنفسها طابعًا خاصًا بها ميزها وارتقى بها؛ فحظيت بالقبول والانتشار، ونالت شرف تنافس الشعراء، إلا أن هذه القصائد تحلت بخصائص التزم بها معظم شعراء العصر وحذا حذوهم صفي الدين الحلّي، وتنقسم إلى قسمين الأول من حيث الشكل والآخر من حيث المضمون. (شبيب، ١٩٩٨: ٦١- ٧٤).

من حيث الشكل: تنقسم قصائد المديح النبوي في ديوانه إلى مقدمة ووسط وخاتمة، كما كانت معظم قصائد المديح النبوي لدى شعراء العصر المملوكي.

أولًا: المقدمة انقسمت إلى شقين

الأول: انتهج أسلوب المقدمة التقليدية المتعارف عليها في قصائد المدح، وكما سبق وأشرنا أن قصائد المديح النبوي أخذت طابع قصائد المدح من حيث الاعتماد على المقدمة التقليدية (الطللية) لكن بعض الشعراء استبدلها بذكر الأماكن المقدسة والشوق إليها.

أما القسم الثاني: فاعتمد الابتعاد عن المقدمة الغزلية التقليدية واستبدل بها المقدمة المستحدثة: وهي إما أن تكون في الحب الإلهي، أو الحب المحمدي.

نلاحظ أن صفي الدين الحلِّي في مدائحه نهج أسلوب المقدمة التقليدية فنجده كسابقيه في نظم قصائد المدح والمديح النبوي، فكما هو متعارف عليه في المقدمة الغزلية أن يقف فيها الشاعر على الأطلال، ويتغزل بجمال محبوبته، ويذكر لوعة الأشواق، فقد اتبع شعراء العصر المملوكي نفس النهج في المديح النبوي حتى إننا نجد أن صفي الدين الحلِّي اتبع هذا النهج في قصيدتين من قصائده الثلاث، حيث استهل قصيدته أيا صادق الوعد بقوله() : (الحلي: ٢٠٠٠"١/ ١٣٧-١٣٨) [البحر الطويل]

فَيُزْهَى، وَلكِنَّا بِذاكَ نَضِيرُها كَفى البَدْرَ حُسنًا أن يُقَالَ نَظِيرُها،
يُقَاسُ بِهِ مَيَّادُها وَنَضِيرُها وَحَسْبُ غُصُونِ الزانِ أنَّ قَوَامَها
قَضَى حُسْنُها أنْ لا يُفَكَّ أَسِيرُها أَسِيرَةُ جِحْلٍ مُطلَقَاتٌ لِحَاظُها
فَكَيْفَ إذا مَا آنَ مِنْها سُفُورُها تَهِيمُ بِها العُشَاقُ خَلْفَ حِجابِها،
إلَيها، فَمِنْ شَأْنِ البُدُورِ غُرُورُها وَلَيسَ عَجِيبًا أَنْ غُرِرْتُ بِنَظْرَةٍ
إذا شانها إقْتارُهَا وَقَتِيرُها وَيُسْعِدُنِي شَرْخُ الشَّبِيبَةِ والغِنى،
صَبُورًا على حَالٍ قَلِيلٌ صَبُورُها وَمُذْ قَلَبَ الدَّهْرَ المِجَنَ أَصَابَنِي
لَمَا كَادَ يَمْحُوَ صِبْغَةَ اللَّيلِ نُورُها فَلَوْ تَحْمِلُ الأيَامُ مَا أنَا حَامِلٌ
عَلَيَّ، وَإمَّا تَسْتَقِمُ أُمُورُها سَأَصْبِرُ إمَّا أَنْ تَدُورَ صُرُوفُها
وإنْ تَكُنِ الزَّبَّاءُ، إنِّيَ قَصِيرُها فَإنْ تَكُنِ الخَنْسَاءُ، إنِّي صَخْرُهَا

في هذه القصيدة أطال وأسهب صفي الدين الحلِّي في مقدمته الغزلية؛ التي يعبر من خلالها بصورة رقيقة متجانسة عن جمال محبوبته ذات القوام الرشيق، منتقلا لوصف أشواقه ومدى هلاك حاله لدرجة أن الصبر الذي يتحمله لو حملته الأيام لما تمكن ضوء الشمس أن يَمْحُو عتمة الليل من ثقل ما يحمله من هموم وأعباء، هذه المقدمة الغزلية توضح حال قائلها، وما أصاب نفسه من ضعف وإنكار، لما مر عليه من صروف الدهر، وكيف أنه تهالك تحت وطأة نوائبه، لكنه بقي صامدًا دون استسلام لنوائبه ، ويتطرق خلال ذلك بذكر الخنساء -الشاعرة التي بكت أخاها صخرًا- والزَّبَّاءِ - ملكة تدمر- اللتين عانيتا من نكبات الدهر وآلامه وأوجاعه.

كما أن الشاعر كان ميالا للجناس في قصائده سواء أكان لفظيًا أو معنويًا، فلا تكاد تخلو قصيد له من هذا الفن حتى في نبوياته نجده قد نوع في استخدامه، مما يبرز مقدرته الشعرية وقدرته على صياغة الألفاظ دون الإخلال بمعنى القصيدة، بعيدًا كل البعد عن الابتذال، ففي البيت الأول جانس بين لفظي (نَظِيرُها، نَضِيرُها) (إقْتارُهَا وَقَتِيرُها)، كما أنه أضاف جانبًا فنيًا بديعيا آخرًا من خلال استخدامه للطباق مما يمنح القصيدة إيقاعًا فنيا بين المقابلة بين الكلمة وضدها، فطابق بين لفظي (حِجابِها، سُفُورُها) ومما أضفى على قصيدته لمسة جمالية ونغمًا موسيقيًا اعتماده على التصريع في نظم قصيدته.

ليخلص من بعد هذه المقدمة لذكر الأماكن التي مر بها في رحلته لزيارة الرسول ﷺ ، وهي عبارة عن رحلة خاض غمارها في ثلاثة وعشرين بيتًا من القصيدة، محاكيا بها أسلوب كعب بن زهير، ولعلها كانت رحلة جالت في مخيلته، أو أنها جالت في نفسه من خلال مشاهد الحجاج الراحلين لأداء مناسك الحج، وما يعانونه من مشقة في سبيل الوصول للأماكن المقدسة مما يضفي عل أبياته سمة المصداقية والواقعية، فنجده يقول فيها (): (الحلي: ٢٠٠٠"١/ ١٤١ – ١٤٢) [البحر الطويل]

تَقَلَّدَهَا خَصْرُ الرُّبَى وَنُحُورُها ... إذا نُظِمتْ نَظْمَ القَلائِدِ في البُرَى
تَجُولُ عَلَيْهَا كَالوِشَاحِ ظُفُورُها ... طَوَاهَا طِوَاهَا، فَاغْتَدَتْ وَبُطُونُهَا
مَلاعِبُ شِعْبَيْ بَابِلٍ وَقُصُورُها ... تَسيرُ بِهَا نَحْوَ الحِجَازِ وقَصْدُها
ولاحَتْ لَهَا أَعْلامُ نَجْدٍ وَقُورُها ... فَلَما تَرَامَت عَنْ زَرُودٍ وَرَمْلِهَا
فَقَامَتْ لِعِرْفَانِ المُرَادِ صُدُورُها ... وَعَاجَ بِهَا عَنْ رَمْلِ عاجٍ دَلِيلُهَا،
إلى نَحْوِ خَيْرِ المُرْسَلِينَ مَسِيرُها ... غَدَتْ تَتَقَاضَانَا المَسِيرَ لأَنَّهَا
لَدَيْهِ، وَحَيَّا بِالسَّلامِ بَعِيرُها ... تَرُضُّ الحَصَى شَوْقًا لِمَنْ سَبَّحَ الحَصَى
إلى خَيرِ مَعبودٍ دَعَاها بَشِيرُها ... إلى خَيْرِ مَبْعُوثٍ إلى خَيرِ أُمَّةٍ،

يكمل صفي الدين الحلِّي قصيدته متنقلًا من الغزل إلى الوقوف على الأماكن التي مر بها في رحلته وصولا للرسول ﷺ مبدعا في استخدامه للجناس (طَوَاهَا، طِوَاهَا) والتكرار في البيت الأخير وهو من الأنماط التي أغرق فيها صفي الدين الحلِّي والتي سنتطرق لها عند الحديث عن مضمون قصائده.

واستهل صفي الدين الحلِّي مدحه في قصيدته فضل به زينة الدنيا بوصف الطبيعة وبذلك انتقل من النمط التقليدي إلى التجديد بقوله(): (الحلي: ٢٠٠٠" ١/١٥٢-١٥٣). [البحر البسيط]

بَدَتْ فَهَيَّجَتْ الوَرْقَاءَ في الوَرَقِ ... فَيْرُوزَجُ الصُّبْحِ أَمْ يَاقُوتَةُ الشَفَقِ
سَكْرَى كَمَا نُبِّهَ الوَسْنَانُ مِنْ أَرَقٍ ... وَمَالَتِ القُضْبُ، إذْ مَرَّ النَّسِيمُ بِهَا
سِتْرًا تَمِدُ حَوَاشِيهِ على الأفُقِ ... وَالغَيْمُ قَدْ نُشِرَتْ في الجّوِّ بُرْدَتُهُ
وَالطَّيْرُ تَسْجَعُ مِن تِيهٍ وَمِنْ شَبَقِ ... والسُّحُبُ تَبْكِي، وَثَغْرُ البَرْقِ مُبْتَسِمٌ
وَالمَاءُ في هَرَبٍ، وَالغُصْنُ في قَلَقِ ... فالطَيرُ في طَرَبٍ، والسُّحُبُ في حرَبٍ حَرَبٍ
قَدْ ظَلَّ يَشْكُرُ صَوْبَ العَارِضِ الغَدِقِ ... وَعَارِضُ الأَرْضِ بالأَنْوَاءِ مُكْتَمِلٌ،
كَما تَكَلَّلَ خَدُّ الخُودِ بالعَرَقِ ... وَكَلَّلَ الطَّلُّ أَوْرَاقَ الغُصُونِ ضُحًى
ما بَيْنَ مُخْتَلِفٍ مِنْهُ وَمُتَّفِقِ ... وَأَطْلَقَ الطَّيْرُ فِيهَا سَجْعَ مَنْطِقِهِ،
وَ للمِياهِ دَبِيبٌ غيرَ مُسْتَرَقِ ... وَالظِّلُّ يَسْرِقُ بَيْنَ الدَّوْحِ خُطْوَتَهُ\
والنَّرْجِسُ الغَضُّ فيها شَاخِصُ الحَدَقِ ... وَقَدْ بَدَا الوَرْدُ مُفترًا مَبَاسِمُهُ،
أو أَصْفَرٍ فاقِعٍ، أو أَبْيَضٍ يَقَقِ ... مِنْ أَحمرٍ سَاطِعٍ، أو أَخْضَرٍ نَضِرٍ،
نَشْرٌ يَعطِرُ مِنهُ كُلُّ مُنْتَشِقِ ... وَفَاحَ مِنْ أَرَجِ الأَزْهَارِ مُنْتَشِرًا

يبدو أن صفي الدين الحلِّي نظمها معبرًا من خلالها عن فرح الأكوان بمولد الرسول ﷺ وعلى الرغم من أنه استهلها بالغزل لكنه اتخذ نهجًا جديدًا في الوصف، حيث عمد إلى وصف الطبيعة الخلابة في فصل الربيع، مستخدمًا أسلوبه الفريد في تجسيم وتشخيص ما حوله، مضفيًا عليها لمسة نابضة بالحياة المتدفقة، كما لو أنها لوحة فنية تعج بالألوان الأحمر، والأخضر، والأصفر، والأبيض، فها هي ذي الأرض مزهرة بالورد والنرجس العبق، ونسيم الهواء العليل يعبر فيها ناشرا أريج الرياض، راسمًا صورة الغيم في السماء، فأرشاً رداءه الأبيض الطويل، يجاوره الغيم الماطر الباكي برفقة البرق الذي يبسم ثغره وسط السحاب، والطير محلقًا ومغردًا طربا، فها نحن ذا بين صوت المطر والبرق والطير ودبيب الماء نطرب بولادة خير البشر، وكأنما يصف لنا سعادته هو بطريقة غير مباشرة.

أبدع صفي الدين الحلِّي في وصف الطبيعة في مقدمته الغزلية وكأننا نجد أنفسنا أمام شاعر من شعراء الأندلس، يتنغم ويسترسل في وصف الطبيعة، وهو في هذه الصورة البديعية التي رسمها يبين لنا مدى فرح الربيع بكل بهجته بالرسول ﷺ وهو بذلك يبدع في تطويع الألفاظ واللغة والأساليب، مستخدما موهبته الشعرية وثقافته الواسعة، وعلمه الغزير في تقديم مدائحه النبوية في حلة تطرب لها لآذان وتسعد بها القلوب.

وابتعد في قصيدته (أخذ الإله لك العهود) عن المقدمة مطلقًا؛ وباشرها بمديح خير الورى، وهو بذلك خالف قصائده التي جعل لها مقدمة يتخلص منها للمديح، والتي استهلها بقوله: (الحلي: ٢٠٠٠" ١/١٤٦). [البحر الكامل]

وانشَقَ مَنْ فَرَحٍ بِكَ الإيوَانُ خَمِدَتْ لِفَضْلِ وِلادِكَ النِّيرَانُ،
مِنْ هَوْلِ رُؤيَاهُ أَنُو شُرْوَانُ وَتَزَلْزَلَ النَّادِي، وأَوْجَسَ خِيفَةً
وَهُما وحِزقيلٌ لَفَضْلِكَ دانُوا وَعَليكَ إرمِّيا وشَعيا أثنيا،
ـتَّوراةُ والإنجيلُ والفُرْقَانُ بِفَضَائِلٍ شَهِدَتْ بِهِنَّ الصُحُفُ والـ

استهل الشاعر قصيدته بحدث ولادة الرسول ﷺ دون أن يتطرق للمقدمة الغزلية، ذاكرًا أسماء أنبياء بني إسرائيل (إرمِّيا وأشَعيا وحِزقيلُ)، واصفًا مدى فرحة الأكوان بمولد خير البشر فقد أثنوا عليه وهم يأملون الوصول لفضله عليه أفضل الصلاة والسلام؛ لأن الكتب السماوية السابقة شهدت بذلك سابقا.

ثانيًا: الوسط، وهو عمود القصيدة الشعرية والمحور الأساسي الذي يرتكز عليه الشاعر، وقد نهج الشعراء فيه نهج الرحلة التخيلية، التي يسافرون من خلالها في الزمان والمكان، وصولا إلى الخصال المحمدية، مرورًا بمعجزاته ولا سيما الإسراء والمعراج، وغزواته، وأهم الأحداث التي مر بها الرسول الكريم ﷺ وصولا إلى التسليم على أهله وصحبه.

سار صفي الدين الحلِّي في مدائحه على نهج سابقيه ومعاصريه، بعدما أسبقها بما يزيد عن عشرة أبيات في المقدمة الغزلية، فيصف الشاعر الرسول ﷺ في قصيدته فضل به زينة الدنيا: (الحلي: ٢٠٠٠" ١/١٥٣) [البحر البسيط]

فَأُكْسِبَتْ أَرَجًا مِنْ نَشْرِهِ العَبِقِ كأن ذِكْرَ رَسولِ الله مَرَّ بِهَا،
بِهِ الوَرَى، فَهَدَاهُمْ أَوْضَحَ الطُّرُقِ مُحَمَّدٌ المُصْطَفَى الهَادِي الذِّي اعْتَصَمَتْ
النَّبِيِّينَ مِن بَادٍ ومُلْتَحِقِ وَمَنْ لَهُ أَخَذَ اللهُ العُهُودَ عَلى
كَقَابِ قَوْسَينِ أَو أَدْنَى إلى العُنُقِ وَمَنْ دَنَا فَتَدَلى نَحْوَ خَالِقِهِ،
عَجَزًا ويُخْرَسُ رَبُّ المَنْطِقِ الذَّلِقِ وَمَنْ يُقَصِّرُ مَدْحُ المَادِحِينَ لَهُ

اشتهر الحلِّي بالتضمين والاقتباس في أبياته الشعرية ولم تخلُ قصائده من هذا الأسلوب ففي البيت الثالث نراه يضمن أبياته قوله تعالى في سورة النجم: ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ الآية: ٨-٩، مع تكراره للفظ (وَمَنْ) معبرًا من خلاله عن خصال ومناقب الرسول الكريم ﷺ.

ومرة أخرى يمد ح صفي الدين الحلِّي الرسول ﷺمقتبسًا من السيرة النبوية العطرة، مكررًا ذات اللفظ (وَمَنْ) في قصيدته أيا صادق الوعد: (الحلي: ٢٠٠٠" ١/١٤٢) [البحر الطويل]

وَزُلْزِلَ مِنهَا عَرْشُهَا وَسَرِيرُها وَمَنْ أُخْمِدَتْ مع وَضْعِهِ نَارُ فارسٍ
وَجاءَ بِهِ إنْجِيلُهَا وَزَبُورُها وَمن نَطَقَتْ تَوْرَاةُ مُوسَى بِفَضْلِهِ
مُبَشِّرُهَا عن إذْنِهِ، وَنَذِيرُها وَمَنْ بَشَرَ الله الأنَامَ بِأَنَّهُ
وَأَوَّلُها في الفَضْلِ، وهو أَخِيرُها مُحَمَّد خَيرَ المُرْسَلِينَ بِأَسْرِهَا

يسترسل الشاعر في قصيدته أخذ الإله لك العهود بذكر وقائع وأحداث حياة الرسول ﷺ متكئا بذلك على أسلوب سردي إخباري، مفتخرًا ومتباهيًا بذكرها، بقوله: (الحلي: ٢٠٠٠" ١/١٤٦) [البحر الكامل]

واسْتَبْشَرَتْ بِظُهُورِكَ الأكْوَانُ فَوُضِعْتَ لله المُهَيْمِنِ ساجِدًا
شَرَفًا، وَلَمْ يُطْلَقْ عَلَيْكَ خِتَانُ مُكْتَمِّلًا لَمْ تُقْطَعْ لَكَ سُرَةٌ
وَضَعَتْكَ لا تَخْفَى لَهأ أَرْكَانُ فَرَأتْ قُصُورَ الشَامِ آمِنَةٌ، وَقَدْ
سِرًا تَحَارُ لِوَصْفِهِ الأذْهَانُ وَرأتْ حَلِيمةُ وهي ظِئْرُكَ في ابْنِهَا
سِرًا لِيَشْهَدَ جَدَّكَ الدَّيَّانُ وَغَدَا ابنُ ذي يَزَنٍ بِبَعْثِكَ مُؤمِنًا

ثالثًا: الخاتمة، اعتمد الشعراء على أن يخلصوا من مديحهم إلى التوسل والشفاعة طلبًا للعفو والمغفرة، وغالبًا ما تكون على هيئة دعاء، معبرًا من خلالها عن ضعفه وعجزه وتقصيره وندمه وحسرته، لعل قصيدته تكون بابًا من أبواب الشفاعة له يوم القيامة موضحا خلالها سبب نظمه للقصيدة ومطالبه، وفي ذلك يقول صفي الدين الحلِّي في قصيدته أيا صادق الوعد: (الحلي: ٢٠٠٠" ١/١٤٦-١٤٧) [البحر الطويل]

قَضَى خَاطِرِي ألا يَخِيبَ خَطِيرُها وَبَيْنَ يَدَيْ نَجْوَايَ قَدَّمْتُ مِدْحَةً
ويَجلُو عُيُونَ النَّاظِرِينَ قَطُورُها يُرَوِّي غَلِيلُ السَامِعِينَ قِطَارُهَا،
على أنَّهُ تَفْنَى وَيَبْقَى سُرُورُها هِيَ الرَّاحُ لَكِنْ بالمَسَامِعِ رَشْفُهَا،
عَلَيْكَ، وأمْلاكُ السَّمَاءِ حُضُورُهَا وَاَحْسَنُ شَيءٍ أنّني قَدْ جَلَوْتُهَا
مُجِيزًا بِأنْ تُمْسِي وَاَنْتَ مُجِيرُهَا تَرُومُ بِهَا نَفْسِي الجَزَاءَ، فَكُنْ لَهَا
عَلَيْكَ، فَأثرَى مِنْ ذَوِيهِ فَقِيرُهَا فَلابْنِ زُهَيرٍ قَدْ أَجَزْتَ بِبُردَةٍ
بَبَرْدٍ، إذا مَا النَّارُ شَبَّ سَعِيرُها أَجِرْنِي، أجِرْنِي، واجْزِنِي أَجْرَ مِدْحَتِي،
عَرَائِسُ فِكْرٍ، وَالقُبُولُ مُهُورُها وَقَابِلْ ثَنَاها بِالقُبولِ، فإنَّهَا
فَقَدْ شَانَهَا تَقْصِيرُهَا وَقُصُورُها وإن زانَهَا تَطْوِيلُهَا واطِّرَادُهَا،
فَسِيَّانِ مِنْهَا جَمُّهَا وَيَسِيرُهَا إذا ما القَوَافِي لَمْ تُحِطْ بِصِفَاتِكُمْ
على عُصْبَةٍ يَطْغَى عَلَيْهَا فُجُورُها بِمَدْحِكَ تَمَّتْ حِجَّتِي، وَهِيَ حُجَتِي
عُلاكَ إذا مَا النَّاسُ قُصَّتْ شُعُورُها أَقُصُّ بِشِعْرِي إثْرَ فَضْلِكَ واصِفًا
خَلِيلِي هَلْ مِنْ رَقْدَةٍ أسْتَعِيرُها وَأسْهَرُ فِي نَظْمِ القَوَافِي، وَلَمْ أَقُلْ:

نلاحظ في الأبيات السابقة أن صفي الدين الحلِّي قد صرح بغرضه من نظم قصيدته، مقتفيًا بها أثر بردة كعب بن زهير الذي شفعت له قصيدته عند رسول الله ﷺ فكساه بردته وهنا شاعرنا يأمل أن تشفع له قصيدته عند رسول الله ويثيبها عليها في الأخرة، وهو يؤكد لسامعيه أن مدحته ستشفع له عند خير الورى، وهو يلتمس العذر على إطالة القصيدة التي بلغ عدد أبياتها تسعين بيتًا ويرى أن هذا الأمر قد زانها وجملها وأبعد عنها العيب، وهي بذلك حجة له يوم القيامة لطلب الشفاعة من الرسول ﷺ، أبدع صفي الدين الحلِّي في قصيدته عندما تغنى بالخمر بحضرة الرسول الكريم ﷺ، مشبها بها قصيدته التي يتلقاها السامع فيصيبه السكر فهي خمر السامعين مبتعدا كل البعد عن المعنى الحقيقي للخمر الذي جاء تحريمه على لسان ممدوحه، كما سبق وأشرنا إلى إبداع صفي الدين أيضًا في توظيف الجناس في قصائده، ففي البيت السابع جانس بين لفظي (أجِرْنِي، واجْزِنِي)، (حِجَّتِي، حُجَتِي).

ويختم في قصيدته فضل به زينة الدنيا قائلًا : (الحلي: ٢٠٠٠" ١٥٦/١) [البحر البسيط]

مِدادُ فِكْرِي لَمْ يَرْتَجِ ولَمْ يُعِقِ ... فَلا أخِلُّ بِعُذرٍ عِنْدَ مَدْحِكُمُ

فالخَلْقُ يَفْنَى، وَهذا إنْ فَنيتُ بَقِي ... فَسَوفَ أُصْفِيكَ مَحْضَ المَدْحِ مُجْتَهِدًا،

المبحث الثاني

معاني المديح عند الشاعر

من حيث المضمون:

"من أهم عناصر المدائح النبوية: "الحقيقة المحمدية، المعجزات، مدح النبي، مدح الصحابة وآل البيت، الشفاعة والتوسل. يتقدم ذلك كله العنصر الغزلي ... وترتكز هذه العناصر في وجودها على روح صوفية، ويقظة شعورية دينية، فجرتها ردة الفعل على الحياة اللاهية... فإذا تاب الشاعر ورجع إلى رشده وجد نفسه مفرطًا في حب الله... لم يجد خيرًا من قصيدة يمدح بها الرسول ﷺ" (شبيب،١٩٩٨: ٧٥).

يقول في قصيدته أيا صادق الوعد: [البحر الطويل]

بِبُشْرَى، فَلا أخْشَى، وَأنْتَ بَشِيرُها ... أيا صَادِقَ الوَعْدِ الأمينِ وَعَدْتَنِي

نَدَاكَ، فَجاءَتْ حَالِياتٍ نُحُورُها ... بَعَثْتَ الأمَانيَ عَاطِلاتٍ لِتَبْتَغِي

إليكَ، فَعَادتْ مُثْقَلاتٍ ظُهُورُها ... وَأرْسَلْتُ آمَالاً خِماصًا بُطُونُها

يسرد الحلِّي معجزات الرسول ﷺ بأسلوبه الإخباري، وبمشاعره التي تعج بالفخر والعزة، في قصيدته أخذ الإله لك العهود بقوله: (الحلي: ٢٠٠٠، ١٤٧/١-١٤٨) [البحر الكامل]

فَرأى المَلائِكَ حَوْلَكَ الإخْوَانُ ... شَرَحَ الإلهُ الصَّدْرَ مِنْكَ لأرْبَعٍ،

لَكَ في الهَوَاجِرِ جِرْمُهَا صِيوَانُ ... وَحُبِيتَ في خَمْسٍ بِظِلِ غَمَامَةٍ

مَنْهُ الجِدَارُ، وَأسْلَمَ المِطْرَانُ ... وَمَرَرْتَ في سَبْعٍ بِدِيرٍ فانْحَنَى

شَمْسُ النُّبُوَةِ، وانْجَلَى التِّبْيَانُ ... حَتَى كَمَلتَ الأرْبَعِينَ، وَأشْرَقَتْ

والأشْجَارُ، والأحْجَارُ، وَالكِثْبَانُ ... وَالأرْضُ فَاحتْ بالسَّلامِ عَلَيْكَ، والـ

فنَهاكَ عنهَا الزُّهْدُ والعِرْفَانُ ... وَأتَتْ مَفاتيحُ الكُنوزِ بِأسْرِهَا،

أضْحَى لَهُ الشَّكُ، وَهُوَ عِيانُ ... وَنَظَرْتَ خَلْفَكَ كإمَامِ بخاتمٍ

فَالكُلُّ مِنْهَا لِلصَلاةِ مَكَانُ ... وَغَدَتْ لَكَ الأرْضُ البَسِيطَةُ مَسْجِدًا

وَلَكَ المَلائِكُ في الوَغَى أعْوَانُ ... وَنُصِرْتَ بالرُعْبِ الشَّدِيدِ عَلى العِدَى

والضَّبُ والثُعْبَانُ والسِرْحَانُ ... وَغَدَتْ تُكَلِمُكَ الأباعِرُ والظُّبَا،

وَبِبَطْنِ كَفِّكَ سَبَّحَ الصُّوَّانُ ... وَالجِزْعُ حَنَّ إلى عُلاكَ مُسَلِمًا

في نَخْلَةٍ تَزْهَو بِهِ وِتُزَانُ ... وَهَوى إليْكَ العِذْقُ، ثُمَ رَدَدْتَهُ

حَتى تَلاقَت مِنْهُما الأغْصَانُ ... وَالدَّوْحَتَانِ، وقَدْ دَعَوتَ، فأقْبَلا

فَتَفَجَرَتْ بالمَاءِ مِنْكَ بَنَانُ ... وَشَكَا إلَيْكَ الجَيْشُ مِنْ ظَمَأ بِهِ

ذَهَبَتْ، فَلَمْ يَنْظُرْ لَهَا إنْسَانُ ... وَرَدَدْتَ عَيْنَ قُتَادَةٍ مِنْ بَعْدِ مَا

حَتَى كَأنَّ العُضْوَ مِنْهُ لِسَانُ ... وَحَكَى ذِرَاعُ الشَّاهِ مُودِعَ سُمِهِ،

ـسَبْعِ الطِّبَاقِ كَمَا يَشَا الرَّحْمَانُ ... وَعَرَجْتَ في ظَهْرِ البُرَاقِ مُجَاوِزَالـ

بَعْدَ الغُرُوبِ، وَما بِهَا نُقْصَانُ ... وَالبَدْرُ شُقَّ وَأشْرَقَتْ شَمْسُ الضُّحَى

تضم قصيدته سردًا تاريخيًا ممتعًا متسلسلًا، يستهله بمعجزات الرسول ﷺ بدءً من حادثة شق صدره، مرورا بالجذع الذي انحنى وبكى شوقًا لخير الورى، وصولا لتكلم ذراع الشاه المسموم، واصفًا فرحة الأكوان بعهد نبوته، لينشق بذلك بدر السماء وتشرق شمس الضحى فتبدد عتمة الكفر بنور الإيمان، جاعلا من الأرض والأشجار والأحجار والكثبان أشخاصًا يلقون السلام عليه.

ولم يغفل صفي الدين الحلِّي عن ذكر آل وصحابة الرسول ﷺ كما هو حال شعراء عصره ومن ذلك قوله في قصيدته أيا صادق الوعد وهو يمدح أصحابه - رضي الله عنهم - (): (الحلي: ٢٠٠٠، ١٤٣/١) [البحر الطويل]

مَحَبَّتُهَا نُعمى قَلِيلٌ شُكُورُها ... فآلُكَ خَيْرُ الآلِ والعِتْرَةُ التي

بِهَا أمِنَتْ مِنْ كلِّ أرْضٍ ثُغُورُها ... وَصَحْبُكَ خَيْرُ الصَّحْبِ وَالغُرَرُ التي

إذا شَطَ قَارِيهَا وَطاشَ وَقُورُها ... كُمَاةٌ، حُمَاةٌ في القِرَاعِ وفي القِرَى

هنا يتطرق الشاعر من حيث المضمون للحديث عن صحابة الرسول ﷺ واصفا إياهم بأحسن المناقب وبأنهم خير صحبة شجعان لا يتوانون عن فداء الدعوة المحمدية إن دقت ساعة الحرب.

ويقول أيضًا في قصيدته أخذ الإله لك العهود : (الحلي: ٢٠٠٠، ١٥٠/١) [البحر الكامل]

فَنِيَ الكَلامُ وَضَاقَتِ الأوْزَانُ ... وَلَوْ أنّني وَفَّيْتُ وَصْفَكَ حَقَهُ

وَالفَضْلُ والبَرَكاتُ وَالرُّضوَانُ ... فَعَليكَ مِنْ رَبِّ السَّلامِ سَلَامُهُ،

هَبَّ النَسِيمُ، وَمَالَتِ الأغْصَانُ ... وَعَلى صِرَاطِ الحَّقِ آلُكَ كُلَّمَا

ذَلَّتْ لِسَطْوَةِ بَأْسِهِ الشُّجْعَانُ ... وَعلى ابن عَمِّكَ وَارِثِ العِلْمِ الذِّي

نُورُ الهُدَى وَتَآخَتْ الأقْرَانُ ... وأخِيكَ في يَومِ الغَدِيرِ، وَقَدْ بَدَا

طُرُقَ الهُدَى، فَهَداهُمْ الرَحْمَانُ ... وَعلى صَحابَتِكَ الذين تَتَبَّعُوا

وبذلك نجد أن مضمون مدائحه يرتكز إما على سرد الأحداث التاريخية ومعجزاته ﷺ أو التشفع به ﷺ والتطرق لذكر أصحابه – رضوان الله عليهم- كما تعبر عن مشاعره متضمنة النزعة الصوفية.

المبحث الثالث

الأداء الفني في شعر المديح ()

امتاز شعر صفي الدين بالجزالة وانتقاء الألفاظ وكان يعمد لاستخدام الألفاظ الصعبة، واللغة القديمة حتى في مديحه لرسول الله ﷺ وعلى الرغم من ذلك لم تُعب هذه الألفاظ مدحته بل سخرها في رسم صورة متناسقة مفعمة بالحياة لدرجة أنه جسم وشخص كل من الشمس والريح ليضفي جمالا على أبياته ويمنع صعوبة الألفاظ من أن تثقل القارئ ، ولم تخلُ مدائحه من الألفاظ الصعبة والمصطلحات القديمة وفي ذلك يقول بقصيدته أيا صادق الوعد ():(الحلي: ٢٠٠٠، ١/ ١٤٠) [البحر الطويل]

عَليها مِنْ الشُّوسِ الحُمَاةِ جَسُورُها وَقَدْ أرْتَدِي ثَوْبَ الظَّلامِ بِجَسْرَةٍ،
فَمَا وُجَدتْ إلّا وَشَخْصي ضَميرُها كَأني بِأحْشَاءِ السَّبَاسِبِ خَاطِرٌ
يَعُزُّ عَلى الشُّعْرَى العَبُورِ عُبُورُها وَصَادِيَةُ الأحْشَاءِ غَضَّى بِآلِهَا
إذا اخْتَلَفَتْ حَصْبَاؤُهَا وَصُخُورُها يَنُوحُ بِها الخِرِّيتُ نَدْبًا لِنَفْسَهِ،
وَإنْ سَلَكَتْهَا الرِّيحُ طَالَ هَدِيرُها إذَا وَطِئَتْهَا الشَّمْسُ سَالَ لُعَابُهَا،
أَصِيلًا، أَذَابَ الطَّرْفَ مِنْهَا هَجِيرُها وإنْ قَامَتِ الحَرْبَاءُ تَرْصُدُ شَمْسَهَا

وقد سلك في مدائحه نهج التكرار ومن ذلك قوله في ذات القصيدة: (الحلي: ٢٠٠٠، ١/ ١٤٢-١٤٣) [البحر الطويل]

إلى أُمَةٍ لَوْلاهُ دَامَ غُرُورُهَا عَلَيْكَ سَلَامُ اللهِ يَا خَيْرَ مُرْسَلٍ
إذا النَّارُ ضَمَّ الكَافِرِينَ حَصِيرُها عَلَيْكَ سَلَامُ اللهِ يَا خَيْرَ شَافِعٍ،
بِهِ الإنسُ طُرًّا واسْتَتَمَ سُرُورُها عَلَيْكَ سَلَامُ اللهِ يَا مَنْ تَشَرَّفَت
لَهُ الجِنُّ، وانْقَادَتْ إليهِ أُمُورُها عَلَيْكَ سَلَامُ اللهِ يَا منْ تَعَبَّدتْ
فَمِنْ غَيْرِ ذَاكَ البَابِ لَمْ يُؤْتَ سُورُها مَدِينَةُ عِلْمٍ وابن عَمكِ بَابُهَ،
بُدُورٌ لَكُمْ فِي الشَّرْقِ شُقَّتْ بُدُورُها شُمُوسٌ لَكُمْ فِي الغَرْبِ رُدَّتْ شُمُوسُهَا؛
بحورٌ، إذا مَا الأَرْضُ غَارَتْ بُحُورُها جِبَالٌ، إذا مَا الهَضْبُ دُكَّتْ جِبَالُهَا؛

نجد أن الحلّي كرر قوله (عَلَيْكَ سَلَامُ اللهِ يَا خَيْرَ) مرة ومرة أخرى كررها بقوله (عَلَيْكَ سَلَامُ اللهِ يَا من) وعلى الرغم من أن بعضهم عاب عليه ذلك إلا أننا نجد أنه اعتمد على التكرار ليؤكد به المعنى وليضفي على القصائد حسًا ونغمةً موسيقية، ومن تكراره للفظ (بك) قوله في قصيدته أخذ الإله لك العهود(الحلي: ٢٠٠٠، ١/ ١٤٩-١٥٠): [البحر الكامل]

عِنْدَ الشَّدَائِدِ، رَبَّهُمْ لِيُغَاثُوا وَبِكَ اسْتَغَاثَ الأَنْبِيَاءُ جَمِيعُهُم،
عِنْدَمَا نُسِبَ الخِلَافُ إليهِ والعِصْيَانُ فَبِكَ اسْتَغَاثَ اللهَ آدَمُ
دُسْرُ السَّفِيْنَةِ، إذْ طَغَى الطُّوفَانُ وَبِكَ النَّجَى نوحٌ وَقَدْ مَاجَتْ بِهِ
كَشْفَ البَلاءِ فَزَالتِ الأَحْزَانُ وَبِكَ اغْتَدَى أَيُّوبُ يَسْأَلُ رَبَّهُ
نَمْرُودَ إذْ شُبَّتْ لَهُ النِيرَانُ وبِكَ الخَلِيلُ دَعا الإلَهَ، فَلَمْ يَخَفْ
رَبَّ العِبَادِ، وَقَلْبُهُ حَرّانُ وَبِكَ اغْتَدَى فِي السِّجْنِ يُوسُفُ سائِلاً
سَأَلَ القُبُولَ، فَعَمَّهُ الإحْسَانُ وَبِكَ الكَلِيمُ غداةَ خاطَبَ رَبَّهُ
مَيْتًا، وَقَدْ بُلِسَتْ بِهِ الأَكْفَانُ وَبِكَ المَسِيحُ دَعا، فَأَحْيَا رَبُّهُ

ولم يكتف الحلّي بتكرار الألفاظ حيث كرر في قصيدته لفظ (وبكَ) بل نهج ذات النهج في مدائحه حيث إنه كرر موضوعاته فنجد أنه ذكر آل بيت الرسول ﷺ وصحبه في كل مدائحه، كما أنه تطرق لذكر الأنبياء فذكر من أنبياء الله: (آدم، نوح، أيوب، إبراهيم، موسى، عيسى) ليعلي ذكر رسول الله ﷺ ويبدي مكانته بين الأنبياء فهو شفيعهم يوم القيامة وهو قائدهم ومنجيهم من الهلاك، ومن ذلك قوله في قصيدته فضل به زينة الدنيا: (الحلي: ٢٠٠٠، ١/ ١٥٤-١٥٥) [البحر البسيط]

أمْوَاجُهُ مَا نَجَا نوحًا من الغَرَقِ لَوْ أنَّ جُودَكَ للطُّوفَانِ حِينَ طَمَتْ
لَكَانَ مِنْ شَرِّ إبْلِيسَ اللَّعِينِ وُقِي لَوْ أنَّ آدمَ فِي حَزْمٍ خُصِصَتَ بِهِ،
مَسَّتْهُ لَمْ يَنْجُ مِنْهَا غَيْرَ مُحْتَرَقِ لَوْ أنَّ عَزْمَكَ فِي نَارِ الخَلِيلِ وَقَدْ
نُوحِي، لَمَّا خَرَّ يَومَ الطُّورِ مُنْصَعِقِ لَوْ أنَّ بَأسَكَ فِي مُوسَى الكَلِيمِ، وَقَدْ
اللهَ باسمِكَ، واسْتَسْقَى الحيَا لَسُقِي لَوْ أنَّ تُبّعَ فِي مَحْلِ البِلادِ دَعَا
بِبُغْضِكُمْ، كَانَ عِنْدَ اللهِ غَيْرَ تَقِي لَوْ أنَّ عَبْدًا أطَاعَ اللهَ ثُمَّ أتَى
أرْكَبْتَهُمْ طَبَقًا فِي الأرْضِ عَنْ طَبَقِ لَوْ خَالَفْتَكَ كُماةُ الجِنِّ عاصِيةً
لَمْ تُغْنِ مِنها صِلابُ البِيضِ والدَّرَقِ لَوْ تُودِعُ البِيضَ عَزْمًا تَسْتَضِيءُ بِهِ
شَمْسُ النَّهَارِ ولاحَتْ أَنْجُمُ الغَسَقِ صَلى عَلَيْكَ إلهُ العَرشِ مَا طَلَعَتْ
سُبُلُ الرَّشَادِ فَكَانَتْ مُهْتَدَى الفِرَقِ وآلِكَ الغُرَرِ اللاتي بِها عُرِفَتْ
إلى المَنَاقِبِ مِنْ تَالٍ وَمُسْتَبِقِ وَصَحْبُكَ النُّجُبِ الصِيدِ الذِينَ جَرَوا

نلاحظ أن صفي الدين الحلّي كرر لفظ (لَوْ أنَّ)، معبرًا من خلال ذلك عن منزلة الرسول ﷺ بين أنبياء الله دون أن يبتعد عن التضمين والاقتباس من القرآن الكريم بقوله: في سورة الانشقاق: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ الآية ١٩، في أبياته الشعرية قائلًا: (أرْكَبْتَهُمْ طَبَقًا فِي الأرْضِ عَنْ طَبَقِ) معبرًا بذلك عن فضل الرسول ﷺ وقوته؛ فبفضله ينجو الأنبياء من الهلاك والمحن والابتلاءات فلولا أن الطوفان مر به كرم النبي لما نجا نوح من فيضه، فهو ذو كرم، وحزم، وعزم، وبأس، حتى إن جنود الجن لا طاقة لهم بمخالفته، مصليًا ومسلما عليه، ذاكرًا لخير آله وصحبه.

الخاتمة

- اعتمد صفي الدين الحلّي في قصائده على السرد التاريخي، مما ساعده ذلك على أن يأتي بالمعاني القريبة الفهم، ويولد أفكاره بطريقة معبرة نابعة من بحر ثقافته الواسع، وكان ممن يعتمدون على استخدام الألفاظ المألوفة الواضحة سهلة الفهم لعامة الناس، ويتم تداولها وحفظها وترديدها على الألسن.

- لم يخرج صفي الدين الحلِّي في مدائحه عن السيرة النبوية العطرة، والأوصاف الشريفة التي لعلها وردت في بردة البوصيري، إلا أنه اتخذ لنفسه نهجًا جديدًا باعتماده على الأساليب البيانية البليغة، حتى يظن القارئ بأن هذا المعنى هو المعنى الظاهر وليس وراءه وجه آخر، بالرغم من اعتماده على الأسلوب التقليدي.

- مديح صفي الدين يعبر عن مدى ثقافته الدينية، وذلك من خلال سرده للأحداث التاريخية في قصائده، سواء من خلال التحدث عن معجزات الرسول ﷺ ، مرورًا بقصص الأنبياء، وصولا لصفاته ومناقبه ومواقفه ﷺ.

- أبدع صفي الدين الحلِّي في نظم مدائحه من خلال التنويع في الأساليب البلاغية من جمال التشبيه، والتجسيم والتشخيص، وحسن التخلص، والجناس والطباق والاقتباس والتضمين، وهذا يدل على مدى فهمه وتعمقه في أبواب البلاغة وكيف لا وهو من رواد البديعيات التي ضمت أصناف البديع بين أبياتها التي امتدح بها خير الورى، فشاعرنا ذو باع ضليع باللغة والبلاغة فنجد يستخدم الألفاظ الرقيقة العذبة في معظم مدائحة إلا ان هناك بعض الألفاظ الغريبة والصعبة والتقليدية قد في مدائحه، وهذا ما يؤكد ثقافته الواسعة.

- اتبع صفي الدين الحلِّي نهج الشعراء الذين امتدحوا رسول الله ﷺ من خلال تقسيم قصائدهم إلى مقدمة ووسط وخاتمة، لكنه جدد ونوع في قصائده فتارة يستهلها في مديح الرسول ﷺ ، وتارة في وصف الطبيعة وتارة أخرى في الغزل، لكنه نهج في مضمونه طريقًا واحدًا طال أو قصر فتحدث فيه عن معجزات الرسول ﷺ ، أحداث حياته، صفاته ومناقبه، فضله على الأنبياء، ومر بذكر آله وصحبه، طالبًا منه الشفاعة والنجاة يوم الحساب.

- صرَّح صفي الدين الحلِّي دائما في سبب نظمه لقصائد المديح النبوي، وهي رغبته الملحة بنيل شفاعة الرسول ﷺ والنجاة من الهلاك بعد تكاتفت عليه الهموم، موقنًا بأنه السبيل لنيل شفاعته، والتي ستنجلي من خلالها همومه يوم الحساب وتغفر له زلاته وهفواته.

الهوامش

(١) لمزيد من التفاصيل عن حياة الشاعر صفي الدين الحلِّي، انظر: الحلِّي ، صفي الدين، ديوانه، ٢٠٠٠م، ص ٩-١٠، العسقلاني. ابن حجر، الدرر الكامنة في أعيات المائة الثامنة، ١٣٤٩هـ،٢/ ٣٦٩، الزركلي، خير الدين. الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ٢٠٠٢م، ١٧/٤.

(٢) البديعيات: قصيدة شعرية مطولة، غرضها مدح النبي – صلى الله عليه وسلم – تُنظم على بحر البسيط ورويها حرف الميم المكسورة ، ويضم كل بيت فيها لونًا من ألوان علم البديع، ويكون البيت الشعري عبارة عن شاهد على الفن البديعي، وقد يواري اسم الفن البديعي الي ضمه البيت أحيانًا وقد يصرح به أحيانًا أخرى، لمزيد من التفاصيل انظر: أبو زيد، علي. (١٩٨٢).البديعيات في الأدب العربي نشأتها وتطورها وأثرها. عالم الكتب. ص ٤٦ .

(٣) لمزيد من التفاصيل انظر: سليم، حسن عبد الرحمن. (٢٠٠٥). الغصون اليانعة في أدب العصور المتتابعة، مطبوعات جامعة الإمارات العربية المتحدة، ص٢٦٢. سليم. محمود رزق. (١٩٥٧م) الأدب العربي. ص ٧٠. عصر سلاطين المماليك. ٢٨٤/٨ .

(٤) يعد البوصيري من أوائل الشعراء الذين اهتموا بنظم قصائد المدائح النبوية في العصر المملوكي ، ونخص بالذكر قصيدته الشهيرة (بالبُرْدَة) ، ولولا ما قد أحاط به البوصيري حول نفسه في قصيدته من باب التعظيم والتقديس لما حظيت بكل هذه الشهرة، فيقول البوصيري عنها: "كنت قد نظمت قصائد في مدح رسول الله ، منها ما كان اقترحها علي الصاحب زين العابدين يعقوب بن الزبير ، ثم انتقل لي بعد ذلك فالج أبطل نصفي ، ففكرت في عمل قصيدتي هذه فعملتها ، واستشفعت بها إلى الله تعالى في أن يُعافيني ، وكررت انشادها ونمت فرأيت النبي – صلى الله عليه وسلم – فمسح وجهي بيده المباركة ، وألقى عليّ بردة ، فانتبهت فوجدت فيّ نهضة فقمت وخرجت من بيتي ، ولم أكن أعلمت بذلك أحدًا ، فلقيني بعض الفقراء، فقال لي: أريد أن تعطيني القصيدة التي مدحت بها رسول الله ، فقلت : أيها ؟ فقال: التي أنشأتها في مرضك ، وذكر أولها ، وقال والله لقد سمعتها البارحة تنشد بين يدي رسول الله ، ورأيت الرسول ﷺ يتمايل وأعجبته ، وألقى على من أنشدها بردة ، فأعطيته إياها وشاع المنام" لمزيد من التفاصيل انظر: أمين، بكري شيخ. ص ٢٦٤- ٢٦٥ ، شبيب، غازي. فن المديح النبوي في العصر المملوكي. ص.ص ٤٢-٤٧، الرجب، إيمان عواد. بديعيات العصر المملوكي بين البديع والمديح النبوي. مجلة جيل للدراسات الأدبية والفكرية. م٧(٦٠) ص١٠٥.

(٥) الثبور: الهلاك والويل.

(٦) الجسام: الأمور العظيمة ، الهفوة: الغلط والزلة

(٧) غصون الزان هي غصون الزيتون، ميادها: تماليها، الجِحل: الخِلخال. الزباء: ملكة تدمر وقصير: الذي تمكن من خداعها وهو يشير إلى قصة خداع قصير للزباء.

(٨) البرى: حلقة توضع في انف الناقة، طواها: اهزلها، وطواها الثانية: جوعها، القور: الجبال الصغيرة.

(٩) فيروزج: حجر كريم، الشبق: إشتداد الشهوة الفاسدة، الحرب: شدة الغيظ، عارض الأرض: صفحة خدها، الأنوار: الأزهار، الصوب: المطر، العارض: السحاب، الغدق: الممطر، الدوح: الشجر الكبير.

(١٠) العترة: الثغر

(١١) الأداء الفنـي في شـعر المديـح هـو عبـارة عـن الأسـاليب والتقنيـات الفنيـة التـي يسـتخدمها الشـعراء للتعبـير عن مشاعرهم تجاه الشخصيات التي يتم مدحها، مثل الحكام أو الشـخصيات البارزة. يتضمن ذلك استخدام الصور البلاغية، مثل الاسـتعارة والتشـبيه، إضافة إلى الموسـيقى الشـعرية، مثل الوزن والقافية،كما يشمل أيضًا تنظيم الأفكار وتقديم المديح بشـكل مؤثر، حيث يسعى الشـاعر إلى نقل انطباعات قويـة وإيجابية عن الممـدوح. وقد يتضمن هـذا أيضًا اللعب على العواطف، سـواء من خلال المـدح المباشر أو التلميحات، ممـا يجعل القصائـد مؤثرة وذات تأثير عميـق على المتلقي.

(١٢) الجـسرة: الناقة الشـديدة، الشـوس: أي الأبطـال، الصادية: العطـشى، الآل: السراب، الشـعرى العبور: نجمة في السـماء، الخريـت: الدليل الحاذق.

المراجع

أبو زيد، علي (١٩٨٢). البديعيات في الأدب العربي نشأتها وتطورها وأثرها. دمشق: عالم الكتب.

الأيوبي، ياسين (١٤١٥هـ /١٩٩٥م). آفاق الشعر العربي في العصر المملوكي. طرابلس: جرّوس برس.

باشـا، عمـر مـوسى (١٩٦٤). الأدب في بـلاد الشـام الزنكيـين والأيوبيـين والمماليـك. دمشـق: المكتبـة العباسـية.

بَـردِي، ابـن تَغرِي (١٣٨٣هـ / ١٩٦٣). النجـوم الزاهرة في ملوك مـصر والقاهرة. القاهـرة: دار الكتب.

بكـري، شـيخ أمـين (١٩٧٢). مطالعـات في الشـعر المملوكـي والعثمانـي. بـيروت: دار العلـم للملايـين.

الحلّي، صفي الدين (٢٠٠٠). ديوانه. تحقيق: محمد حور، بيروت: المؤسسـة العربيـة للدراسـات والنـشر؛ عمّـان: دار فـارس للنشر والتوزيع.

الحـور، محمد إبراهيـم (١٩٩٠). صفي الدين الحلي حياته وأثاره. ط٢، بيروت: دار الفكر المعاصر؛ دمشق: دار الفكر.

حويـزري، عبد الـرازق عبد الحميد (٢٠١٨). التشـكيل التصويري في مقدمة قصيدة المديح النبوي عند صفي الدين الحلي. السعودية: مجلـة جامعة أم القرى. (٢٢)، ٢٨١- ٣٢٠.

الرجب، إيمان عواد (٢٠٢٠). بديعيات العصر المملوكي بين البديع والمديـح النبوي. مجلة جيل الدراسـات الأدبيـة والفكرية. بيروت، ٦٠(٧)، ٩٩- ١١٦.

الـزركلي، خـير الديـن (٢٠٠٢). الأعـلام قامـوس تراجـم لأشـهر الرجـال والنسـاء من العـرب والمسـتعربين والمسـتشرقين. ط١٥، بـيروت: دار العلـم للملايين.

سـلام، محمـد زغلـول (١٩٩٥). الأدب في العـصر المملوكـي. الاسـكندرية: منشـأة المعـارف.

سـليم، محمود رزق (١٣٧٧هـ / ١٩٥٧م). الأدب العربي وتاريخه في عـصر المماليـك و العثمانيين و العصر الحديث. القاهرة: مطابع دار الكتاب العربي.

سـليم، محمـود رزق (١٩٦٢). عـصر سـلاطين المماليـك ونتاجـه العلمـي والأدبـي. القاهـرة: مطابع دار الكتـاب العربي.

حسـن، عبـد الرحمـن سـليم (٢٠٠٥). الغصـون اليانعـة في أدب العصـور المتتابعة. أبوظبـي: مطبوعات جامعة الإمـارات العربية المتحدة.

شـبيب، غـازي (١٩٩٨). فـن المديـح النبـوي في العـصر المملوكي. صيدا: المكتبـة العصرية.

الصفـدي، صـلاح الديـن خليـل (١٩٩٥). صفـي الديـن الحلي. من أعيـان العـصر وأعـوان النصر. تحقيـق: عدنان درويش. دمشـق: منشـورات وزارة الثقافة.

العسـقلاني، ابـن حجر (١٣٤٩هـ). الدرر الكامنـة في أعيان المائة الثامنـة. حيدرأباد: دار إحياء المعـارف العثمانية.

فريـح، عثمان صالـح (١٩٩٣م) المديح النبوي في العصر المملوكي. الإمارات: مجلة كلية الدراسـات الإسـلامية والعربية، (٦)، ٢٢١ – ٢٤٨.

الكتبـي، محمـد بـن شـاكر (١٩٧٤م). فـوات الوفيـات. تحقيـق: إحسـان عبـاس، بـيروت: دار صادر.

محمود، سـالم محمد (١٤١٧هـ / ١٩٩٦م). المدائح النبوية. ط١، بيروت: دار الفكر المعاصر، دمشـق: دار الفكر.

مكي، محمـد علي (١٩٩١). المدائح النبوية. ط١، القاهرة: الشركة المصرية العالمية للنشر.